﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۗ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: 31]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين حضورِ الكافرين المَحشَرَ، ومشهدِ حسرتهم عند قيامِ السّاعة

لَمّا حدَّثنا بيانُ الله تعالى عن حُضور الكافرينَ المَحشَرَ عندَ البَعث الَّذي كانوا يُنكرون، مُعترفينَ بإنكارِهم الَّذي ذاقوا بسببه العذابَ، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ لِتُعلِنَ خَسارتَهمُ الفادحَةَ، وهي تُصوِّرُ مَشهدَ تحسُّرِهم على ما ضيَّعوا في جَنبِ الله، وها هم يَحملونَ ذُنوبَهم وسيِّئاتِهم الَّتي قَوَّسَتْ ظُهورَهم حسّيًّا ومعنويًّا، فأضعَفَتْها عنِ السَّيرِ إلّا إلى الجحيم، حيث يَندمون ويقولون: ياحسرتَنا على التّفريطِ في اتِّباع الحقِّ في الدّنيا، وهم يومئذٍ يَرزحون تحت أعباءِ ذنوبِهم، فيا قُبحَ ما يحملون منَ الذّنوبِ الثّقيلةِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَسِرَ﴾: يَخسرُ خُسرانا. والخاسرُ: الّذي لم يربح في تجارتِه، ومصدرُه: الخسارةُ والخُسْرُ. كِلتُه ووزنتُه فأخسرتُه، أي: نقصتُه وصفقةٌ خاسرةٌ، أي: غيرُ مُربحةٍ[2]، والخُسْرُ والخُسران: انْتقاصُ رأسِ المال، ويُنسَبُ ذلكَ إلى الإنسان، فيُقالُ: خَسِرَ فلانٌ، وإلى الفعل، فيُقال: خَسِرتْ تجارتُه، قالَ تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [النّازعات: 12]، ويُستعملُ ذلكَ في المقتَنَياتِ الخارجةِ كالمالِ والجاهِ في الدُّنيا وهو الأكثرُ[3]، وفي المُقْتَنَياتِ النَّفْسيَّةِ، كالصِّحَّةِ

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 176.
(2) الخليل، العين: (خسر).
(3) الرّاغب، المفردات: (خسر).

والسَّلامَةِ والعَقْلِ والإيمانِ والثَّوابِ، وكلُّ خُسرانٍ ذكرَه اللهُ تعالى في القرآنِ فهو على هذا المعنَى الأخيرِ، دونَ الخُسران بالمُقْتَنياتِ الدُّنيويَّةِ والتِّجاراتِ البشريَّةِ[1]، ولذلك كان معنَى التَّخسير: الإهلاكَ، حتَّى إنَّ الكلماتِ الثَّلاثَ: الخَسارَ، والتَّخسيرَ، والخَيْسَرَى، بفتحِ الخاء في الثَّلاثة، هي بمعنَى الضَّلالِ والهَلاكِ، وكلاهُما الخُسرانُ الحقيقيُّ[2].

2) ﴿بِلِقَآءِ﴾: (لقى) لقيتُه لقاءً بالمدّ، ولُقى بالضّمّ والقصر، والتقَوا وتلاقَوْا بمعنى واحدٍ[3] اللِّقاءُ: مقابلةُ الشَّيءِ ومصادفتُه معًا، وقد يُعبَّرُ به عن كلِّ واحدٍ، يُقالُ: لَقيَهُ يَلْقاهُ لقاءً ولُقيًّا ولُقْيَةً، ويُقالُ ذلكَ في الإدراكِ بالحسِّ، وبالبَصَر، وبالبَصيرة، قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ [آل عمران: 143]، واللِّقاءُ: الملاقاةُ، قالَ تعالى: ﴿*وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [الفرقان: 21]، وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: 15]، وتخصيصُه بذلكَ لالْتقاءِ مَنْ تقدَّمَ ومَنْ تأخَّر، والتقاءِ أهلِ السَّماءِ والأرض، ومُلاقاةِ كُلِّ أحدٍ بعملِه الَّذي قدَّمه[4]، وقال اللّيث: يقال: لقيَ فلانٌ فلانًا، لقاءً ولُقيا ولُقية واحدة، وهي أقبحُها على جوازها، وكلُّ شيءٍ استقبل شيئًا أو صادفَه، فقد لَقيه، منَ الأشياءِ كلِّها[5].

3) ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: السّاعة: في الأصلِ الوقتُ الحاضرُ، والجمعُ السّاعُ والسّاعاتُ. قال القِطاميُّ:

وكُنّا كالْحَريقِ لَدَى كِفاحٍ *** فَيَخْبو ساعَةً ويَهُبُّ ساعا[6].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ [الرّوم: 55]، يعني: السّاعة الّتي تقوم فيها القيامةُ، وقال الزّجاجُ: السّاعة اسمٌ للوقت الّذي يُصعقُ فيه العبادُ، وللوقت الّذي يُبعثون فيه وتقوم فيه القيامَةُ[7]، قالَ تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: 1]، وقولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: يومُ القيامةِ[8].

(1) الرّاغب، المفردات: (خسر).
(2) الرّازي اللغوي، مختار الصّحاح: (خَسِرَ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (لقي).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لَقى).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لَقى).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (سوع).
(7) ابن سيده، المحكم: (سوع).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 7/178.

4) ﴿بَغْتَةً﴾: من ألفاظِ القرآنِ الكريم "بَغَتَ: الباء والغَين والتّاء أصلٌ واحدٌ، لا يُقاسُ عليه، منه البَغتُ، وهو أنْ يَفجَأَ الشَّيءُ"(1)، البغتُ: المفاجأةُ. قال الشّاعر:

وَلَكِنَّهُم بانوا ولَم أَدرِ بَغتَةً *** وأَنْكَأُ شَيءٍ حينَ يَفجَؤُكَ البَغتُ

وباغتَه الأمرُ، مباغتةً وبُغاتًا وبغتةً، إذا فاجأه(2)، ويُقالُ: جاءَ بَغْتَةً، أَي: فَجْأَةً(3)، وقولُهم: جاءنا فلانٌ بَغتَةً، قال أبو عبيدة: البغتةُ: الفجأةُ، وقال العربُ: تقول: بغتني الأمرُ يَبغتُني بَغْتًا وبَغتَةً. قال اللّه ﷻ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف: 95](4)، وفي قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾؛ فهذه السّاعةُ تَفجأُ المُكذِّبينَ بلقاءِ اللّه، فإذا بهم وجهًا لوَجهٍ أمامَ تَفريطِهم وأوزارِهم الَّتي قدَّموها في دُنياهم.

5) ﴿يَٰحَسْرَتَنَا﴾: "الحَسرةُ: التَّلهُّفُ على الشَّيء الفائت، ويُقالُ: حَسِرتُ عليه حَسَرًا وحَسرَةً، وذلك انكشافُ أمرِه في جَزَعِه وقِلَّة صَبره"(5)، والحَسرَة: النَّدامةُ، قال اللّه تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [يس: 30](6)، قال أبو ذُؤَيب:

أودَى بَنيَّ وأعقَبوني حَسرَةً *** بعد الرُّقادِ وعَبرَةً ما تُقلِعُ(7)

والحسرةُ هو حالُ المُكذِّبين بالبعث، يَتلهَّفونَ على ما فاتَهم منَ الإيمان، والطّاعاتِ، والقُرُباتِ.

6) ﴿فَرَّطْنَا﴾: أصلُ فرَّطْنا منَ الفعل (فَرَطَ)، وهو في فائه وراءه وطائه أصلٌ صحيح، يَدُلُّ على إزالة شيءٍ من مكانِه، وتَنحيَتِه عنه، يُقالُ: فرَّطْتُ عنه ما كَرِهَه؛ أي: نحَّيتُه، ثمَّ يُقالُ: أَفرَطَ؛ إذا تجاوزَ الحدَّ في الأمر، يقولونَ: إيّاكَ والفَرَطَ؛ أي: لا تُجاوِزِ القَدْرَ، وهذا هو القياسُ؛ لأنَّه إذا جاوزَ القَدْرَ فقد أزالَ الشَّيءَ عن جهتِه، وكذلكَ التَّفريطُ: وهو التَّقصيرُ؛ لأنَّه إذا قصَّرَ فيه فقد قَعَدَ به عن رُتبَتِه الَّتي هي له(8). وأولئكَ المُكذِّبونَ بالبعثِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغت).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بغت).
(3) الفارابيّ، معجم ديوان الأدب: 1/135.
(4) الأنباريّ، الزّاهر: 2/5.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسر).
(6) الحميريّ، شمس العلوم: (الحَسرَة).
(7) ابن سيده، المحكم: (عقب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرط).

ليومِ الحساب تَجاوزوا حُدودَ الله، وقصَّروا أيَّما تَقصيرٍ، فقَعَدوا عن رُتبة العُبوديَّة الحقَّةِ لله إلى دَرَكةِ العُبوديَّةِ لغيره ﷻ.

7) ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾: الأوزارُ: جمعُ وِزرٍ، وهو منَ الفعلِ (وَزَرَ)، وفيه الواو والزاء والرّاء أصلان صحيحان: أَحَدُهما المَلجَأُ، والآخرُ الثِّقَلُ في الشَّيء، والَّذي نحتاجُه في سياق النَّصِّ القرآنيِّ الأصلُ الثّاني من معنى (وَزَرَ)، وهو: الثِّقَلُ في الشَّيء. ومعنى (الوِزر): حِملُ الرَّجُلِ إذا بَسَطَ ثَوبَه، فجَعلَ فيه المتاعَ، وحَمَلَهُ، ولذلك سُمّيَ الذَّنْبُ وِزرًا، وكذا سُمّيَ السِّلاحُ وِزرًا. والوزيرُ سُمّيَ به؛ لأنَّه يَحملُ الثِّقَلَ عن صاحبه[1]، ومجازُ الأوزار: الآثامُ[2]، وفي التّنزيل: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾؛ أي: أثقالَهم، ووضعتِ الحربُ أوزارَها: إذا وضع القومُ السّلاحَ عنهم، فجعل الفعْلَ للحربِ، وإنّما هو لأهلِها[3]، وأيُّ حِملٍ أَثقلُ على صاحبِه منَ الكُفر بالله والتَّكذيبِ بلقائه ﷻ؟!

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذا إخبارٌ منَ الله تعالى عن خسارةِ مَن كذَّبوا بلقائِه، وعن خَيبَتِهم إذا جاءتهمُ السّاعةُ فجأةً، وعن ندامتِهم على ما فرَّطوا منَ العمل الصّالحِ، وما أَسلَفوا من قبيحِ الفعل، "ويقولون: ياحسرتَنا على ما فرّطنا في حياتنا الدّنيا فكذّبْنا، واستكبرْنا، واستسلمْنا للشّهواتِ، ونحن نظنُّ أنّه لا حياةَ أخرى، ولا بعثَ، ولا حسابَ، ويأتون اللّه في ذلك اليوم العصيبِ، وهم يحملون ذنوبَهم وخطاياهم على ظهورِهم... وما أسوأَ ما يحملون"[4].

خُسرانُ المُنكرين وحسرتُهم على ما فرّطوا في جنْبِ الله

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وزر).
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/65.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (وزر).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (وزر).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أثرُ الاستئنافِ في ثراءِ المعنى:

قولُه تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾، جاءَ الاستئنافُ للتَّعجيبِ من حالِهم حين يَقعونَ يومَ القيامة في العذاب على ما استداموهُ منَ الكُفر، والَّذي جَرَّأهُم على استدامتِه اعتقادُهم نَفيَ البعثِ، فذاقوا العذابَ لذلك، فتلك حالةٌ يستحقّونَ بها أنْ يُقالَ فيهم: قد خَسِروا وخابوا، والخسارةُ هنا حِرمانُ خَيرات الآخرةِ لا الدُّنيا؛ لأنَّها هي الخسارةُ الحقيقيَّةُ الَّتي تَرتبطُ بالمآل والمصير[1].

أسوأُ الخُسرانِ خُسرانُ يومِ القيامةِ، حيث لا تنفعُ النّدامةُ

دلالةُ حرفِ التّحقيقِ ﴿قَدۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ﴾:

صُدِّرتِ الآيةُ: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾ بحرف التَّحقيقِ ﴿قَدۡ﴾ الَّذي أعقبَه الفعلُ الماضي ﴿خَسِرَ﴾[2]، والخُسرانُ هنا محقَّقٌ لا مريةَ فيه، وهو خسارةٌ نفسيّةٌ وروحيّةٌ كبرى، وخسارةُ مصيرٍ، في دار يبقَى فيها الحالُ على المدَى دون تغييرٍ، ولذلك فهي تورثُ أصحابَها حسرةً لا تنقضي، وندامةً لا تنتهي.

تـهـاوِي بُـنـيـانِ الـكـافـريـن، مُـتـحـقّـقٌ في الخُسرانِ

فائدةُ التّعبيرِ بمادّةِ الخُسران، في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ﴾:

"وخُسرانُهم أوّلًا: لأنّهم يفقدون العزاءَ الرّوحيَّ الّذي يُصيب كلَّ إنسان، ممّا يُعاني في الحياة، فلو كانت الحياةُ الدّنيا لا حياةَ بعدها يكونُ الشّقاءُ النّفسيُّ المقيمُ، لكلِّ من يُصيبُه ألمٌ فيها، أو يقعُ في نفسه أنّه في شقاءٍ؛ لأنّ فيها السّعادةَ في زعمِه، ولأنّه بفقدِ معاني الإنسانيّةِ يكونُ كالحيوان الّذي يأكلُ ليعيشَ، ويعيشُ ليأكلَ، فيفقدَ كلَّ المَعنويّاتِ العاليةِ، ولأنّه ثالثًا: يرتعُ في الشّهوات الموبقةِ، ولأنّه رابعًا: يكونُ في تناحرٍ مستمرٍّ، إذ لا يخشَى اللّه، ولا

مَن خَسرَ الآخرةَ بالـنُّـكـران ذاقَ في آخرتِه مرارةَ الخُسرانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.

يرهبُ عقابَه، وأخيرًا يخسرُ بتلقّي العذابِ الّذي يقعُ عليه، يومَ تقومُ القيامةُ"[1].

دلالةُ العُدولِ منَ الإضمارِ إلى الإظهارِ، في قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ..﴾:

مَن كـذّبَ بلقاءِ الله خسرَ الدّنيا والآخرةَ

قولُه تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۗ﴾ امتدادٌ لقول الذّينَ قالوا: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، وكان حقُّه الإضمارُ على سَنَن قولِه تعالى السّابق: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: 27] وما تبعَه، فيُقالُ حينئذٍ: (قد خَسِروا)، لكنَّ هذا العُدولَ منَ الإضمار إلى الإظهار لسببين؛ الأوَّلُ: ليكونَ الكلامُ بشخصيَّةٍ مُستقلَّةٍ، والثّاني: ليُبنَى عليه ما في قولِه تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۗ﴾ من تفصيلِ قولِه تعالى القادم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾. "ووَضْعُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مَوضعَ الضَّمير؛ للإيذان بسببِ خُسرانِهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ منَ التَّكذيبِ بلقائِه تعالى بقيامِ السّاعة، وما يترتَّبُ عليه منَ البعث، وأحكامِه المتفرِّعةِ عليه، واستمرارِهم على ذلك"[2].

أثرُ صِلةِ الموصولِ في ربْطِ السّياقِ، في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۗ﴾:

في الآخـرةِ تُبلَى السّرائرُ، وتُحدّدُ المَصائرُ

جاءت صلةُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۗ﴾، تحملُ الكثيرَ منَ التّعْيير والتّشنيع، والبيانِ لأسباب الخُسران. واللّهُ ﷻ قد أمهَلَ هؤلاء المُعاندين في الحياة الدُّنيا، فأنزلَ عليهمُ الكُتُبَ، وأرسلَ إليهمُ الرُّسُلَ، ورغَّبَ ورَهَّبَ، ووعَدَ وتوَعَّدَ، ولم يُعجِّلْ جزاءَهم في الدُّنيا، ولم يقبضْهم إليه دون بشيرٍ منه ونذيرٍ، كما قال تعالى: ﴿*وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2480.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/193 - 194.

أَجَلُهُمۡۖ﴾ [يونس: 11]، وقال تعالى: ﴿رُسُلَا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النّساء: 165]، ولكنْ لَمّا يَحينُ موعدُ قيامِ السّاعةِ تظهَرُ أفعالُهم، وتَحضُرُ أعمالُهُم ماثلةً أمامَهم، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ [الكهف: 49]، وهناك يُدركون مغبّةَ التّكذيبِ، وعاقبةَ النُّكران، ومساوئَ الكُفران، فيندمون على ذلك، ولاتَ حين مَندمٍ.

دلالةُ الاستعارةِ التّمثيليّةِ، في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾:

"فاللِّقاءُ في قولِه تعالى: ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ[1]، شَبَّهتْ حالةَ الخَلْقِ عندَ المصيرِ إلى تنفيذِ وعْدِ اللّه ووعيدِه، بحالةِ العبيدِ عند حضورِ سيِّدهم بعد غيبةٍ، ليَجزيَهم على ما فعلوا في مدَّة المَغيب"[2]. ولقاءُ اللّه هو نهايةُ المطافِ، والشّاطئُ الّذي تنتهي إليه الرّحلةُ في بحرِ الحياة اللُّجّيِّ، وهناك سيندمُ المكذِّبُ بلقاء اللّه، ولكن لا ينفعُه النّدمُ آنئذٍ.

العُبوديّةُ للّه شرفٌ، والعبوديّةُ للمخلوقين مَذلّةٌ

دلالةُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ على الغايةِ:

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾، لفظُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غايةٌ لقولِه: ﴿كَذَّبُواْ﴾ لا لقولِه: ﴿خَسِرَ﴾؛ لأنَّ خُسرانَهم لا غايةَ له؛ أي: ما زالَ التّكذيبُ إلى حَسْرتهم وقتَ مجيءِ السّاعة، فإنْ سألَ سائلٌ: أَما يتحسَّرونَ عند موتِهم؟ فالجوابُ: أنَّه لَمّا كان الموتُ داخلًا في أحوال الآخرةِ، ومن مُقدِّماتِها، جُعِلَ من جنسِ السّاعة، وسُمّيَ باسمِها، أو جُعِلَ مَجيءُ السّاعة بعد الموتِ لسُرعته كالواقع بغير فَترةٍ[3]، ويُمكنُ أن تكونَ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيَّةً، تفيدُ السَّببيَّةَ؛ أي: فإذا جاءتْهمُ السّاعةُ

الخلافُ في تأويلِ موقعِ الحرفِ يستوعبُ احتمالاتِ المعنَى في السّياقِ

(1) الاستعارةُ التّمثيليّةُ هي تشبيهُ صورةٍ بصورةٍ لما بينهما من صِلةٍ من حيث المعنى، ثمَّ تُحذفُ الصّورةُ الأولى (المُشبَّه) ويبقى (المُشبَّه به). يُنظر: فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 332.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/189.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 13/ 2.

بَغتةً[1]، وقولُه: ﴿بَغْتَةً﴾ فيه ثلاثةُ وجوهٍ إعرابيَّةٍ[2]: الأوَّلُ: مصدرٌ في موضع الحال؛ أي: باغِتةً. والثّاني: مصدرٌ لفعلٍ محذوفٍ في موضع المفعول المطلَق المؤكِّد. والثّالثُ: مصدرٌ بـ ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ من غير لفْظِه، وكونُه حالًا هو الأظهرُ؛ لأنّ الحالَ فيه معنى الوصْفِ، والمقصودُ: وصفُ كيفيّةِ مجيءِ السّاعة، وأنّها تُفاجئُهم، وهم على تكذيبِهم وإنكارِهم، وفي ذلك ما فيه منَ التّحذيرِ.

دلالةُ جُملتَي الشَّرْطِ والجوابِ:

تـأكـيـدُ وقـوعِ مضمونِ السّياقِ الشّـرطـيِّ يـومَ القيامةِ

في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ جاءتْ جملةُ الشَّرطِ بأداتِه ﴿إِذَا﴾ وفعلِه ﴿جَآءَتْهُمُ﴾ بالفعل الماضي، لبيانِ تحقُّقِ وقوعِ السّاعةِ وقوعًا مفاجئًا لهم، ثمَّ جاءَ جوابُ الشَّرطِ مُصدَّرًا بالفعلِ الماضي ﴿قَالُواْ﴾، ليكونَ على شاكلةِ فعْلِ المجيءِ ليتَّحدَ السّياقُ حينذاكَ، وكأنَّه قد وقعَ وحصلَ ما حصلَ من مفرداتِ هذا المشهدِ، مع بيانِ شدَّةِ تحسُّرِهم على أَنْفُسِهم لا على غيرِهم، فهُمُ المُتحسِّرونَ والمُتَحسَّرُ عليهم، ولذلك جاءت (على) داخلةً على الأمرِ الَّذي كان سببًا في التَّحسُّرِ، وهو قولُهم: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي: في الدُّنيا[3].

نُكتةُ تَسْمِيَةِ يومِ القيامةِ بالسَّاعةِ:

سُرعةُ انقضاءِ الحسابِ يومَ القيامةِ كأنَّه ساعةٌ

سُمّيت القيامةُ بالسّاعة؛ لسُرعةِ انقضاءِ الحسابِ فيها للجزاءِ، لقولِه تعالى: ﴿أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: 62][4]، والألفُ واللّامُ في ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ علَمٌ للغَلَبَة، كهيَ في البيتِ للكعبةِ، والنَّجمِ للثُّريّا؛ لأنَّها غلبتَ على يومِ القيامة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/189.
(2) العكبريّ، الإملاء: 1/239.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/190.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/481، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/595.

نُكتةُ إدْخالِ (أل) من تعريف العهدِ على ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ دون تقدُّمِ ذكرِها:

السَّاعةُ معهودةٌ بشُهرتِها، وهي واقعـةٌ لا ريبَ فيها

أُدخِلَ على ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ لام التعريف للعهدِ دون تقدُّمِ ذِكْرِها، وذلك لشُهرتِها واسْتقرارِها في النُّفوسِ وذَيَعانِ ذِكرِها، وأيضًا فقد تضمَّنها قولُه تعالى ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾[1] وكونُ السّاعة جاءتْهم فهي غايةٌ لتكذيبِهم، لا لخُسرانِهم، فإنّه أبديٌّ لا حدَّ له[2] وقد باغتتْهُم على حينِ غرّةٍ.

دلالةُ الوجوهِ الإعرابيّةِ للفظِ ﴿بَغْتَةً﴾، وأثرُها في توسيعِ المعنى:

اختصاصُ اللهِ وحـــدَه بـقيـامِ السّاعةِ يُعطِي الـكـونَ حمايةً ومَناعةً

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾، نصبَ السّياقُ لفظَ ﴿بَغْتَةً﴾ على المصدرِ في موضعِ الحالِ، كما تقول: قتلتُه صبرًا، ولا يُجيزُ سيبَويه القياسَ عليه، ولا تقولُ: جاء فلانٌ سرعةً ونحوَه[3]، ومعلومٌ أنّ علْمَ السّاعة مخصوصٌ باللّه وحده، وأنّها لا يعلمُها ملَكٌ مقرّبٌ، ولا نبيٌّ مرسَلٌ، وذكرُ حالةِ مجيئِها بغتةً، من باب التّأكيدِ على استئثارِ اللّه بعلْمِ أوانِها، ومعرفةِ زمانِها، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ [الأعراف: 187].

المَجازُ وأثرُه في إبرازِ المعنى في قولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا﴾:

التّعبيرُ بلفْظِ الحسراتِ يُنبئُ عن شِدّةِ النّدمِ على ما فاتَ

قولُه: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا﴾ هذا مجازٌ؛ "لأنَّ الحَسرةَ لا يتأتَّى منها الإقبالُ، وإنَّما المعنَى على المبالغةِ في شدّةِ التّحسُّر، وكأنّهم نادَوْا التّحسُّرَ، وقالوا: إن كان لكَ وقتٌ فهذا أوانُ حُضورِكَ. ومثلُه: (يا

(1) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/283.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/125.

(3) "قال سيبَوَيه: في باب ما يَنتصب منَ المصادر: لأنَّه حالٌ وقع فيه الأمرُ، تقول: قَتَلْتُه صَبراً ولَقيتُه فُجاءةً ومُفاجأةً وكِفاحاً ومُكافَحةً، ولَقيتُه عياناً، وكَلَّمْتُه مُشافَهةً، وأَتَيْتهُ رَكضاً وعَدْواً ومَشياً، وأَخَذتُ ذلك عنه سَماعاً وسَمعاً، وليس كلُّ مصدر، وإن كان في القياس مثلَ ما مضى من هذا الباب، يوضعُ هذا الموضعَ؛ لأنّ المصدرَ هنا في مَوضِع فاعلٍ إذا كان حالًا، ألا ترى أنَّه لا يَحسُنُ أن تقول أتانا سرعةً، ولا أتانا رُجْلةً، كما أنه ليس كلُّ موضعٍ يُستعمَل في باب سَقيًا وحَمدًا، فقد تبيَّن من كلام سيبَوَيه أنّ هذا الباب عنده غيرُ مُطَّرِد". ابن سيده، المخصّص: 4/338.

ويلتا)، والمقصودُ: التّنبيهُ على خطأ المُنادي، حيث تركَ ما أحْوجَه تركُه إلى نداءِ هذه الأشياءِ"[1].

فائدةُ النّداءِ في قولِه: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾:

أفادَ النّداءُ الاستغراقَ في التّحسُّرِ والتّندُّبِ

"إذا قال القائلُ: ما الفائدةُ في مُناداةِ الحَسرةِ، والحسرةُ ممّا لا تجيب؟ قال أبو إسحاق: والفائدةُ في مناداتِها كالفائدةِ في مناداةِ ما يَعقِلُ؛ لأنّ النّداءَ بابُ تنبيهٍ، إذا قلت: يا زيدُ، فإن لم تكن دعوْتَه لتخاطبَه بغير النّداء فلا معنى للكلام، إنّما تقولُ: يا زيدُ لتُنبّهَه بالنّداءِ، ثمّ تقولُ له: فعلتَ كذا"[2]، فنداءُ الحسْرةِ على سبيل المَجازِ إنّما هو إنشاءٌ للمبالغةِ في التّحسُّرِ.

إضافةُ الحَسرةِ إلى ضميرِ جمْعِ المُتكلّم:

الإقرارُ على أنفسِهم بوقوعِ الحَسْرةِ الأبديّةِ

قولُه: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ فيه إضافةُ الحَسرةِ إلى أنفسِهم؛ وذلك ليكونَ تَحسُّرُهم لأجلِ أنفُسِهم، فهمُ المُتحسِّرونَ والمُتَحَسَّرُ عليهم، بخلاف مَن قال: يا حَسرةً، فإنَّه في الغالبِ تحسَّرَ لأجل غيرِه، فهو يتحسَّرُ لحالِ غيرِه، ولذلك تجيءُ معه (على) الَّتي تَدخُلُ على الشَّيءِ المُتَحَسَّرِ من أجلِه، داخلةً على ما يدُلُّ على غيرِ التَّحَسُّر، كقولِه تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ [يس: 30]، فأمّا مع (يا حَسرتي، أو يا حَسرَتا) فإنَّما تَجيءُ معهما (على) داخلةً على الأمر الَّذي كان سببًا في التَّحَسُّر، كما في قولِه تعالى من هذه الآية: ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾[3].

نُكتةُ استعمالِ (ما) في قولِه تعالى: ﴿مَا فَرَّطۡنَا﴾:

الحسرةُ على التّفريطِ بعدَ المماتِ ندمٌ بعدَ الفواتِ

(ما) في قولِه: ﴿مَا فَرَّطۡنَا﴾ "موصولةٌ، ماصَدَقُها[4]: الأعمالُ

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/595.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/190.
(4) الماصدق: مركّب مَزجيٌّ بضم القاف، وهو عند المناطقة ما يصدُق عليه المفهوم الكلّي. يُنظر: حاشيتا قليوبي وعميرة: 1/21، والقرافي، الفروق: 1/281.

الصّالحةُ"[1]، وهي محلُّ عَوْدِ مفعولِ ﴿فَرَّطْنَا﴾ المحذوفِ، تقديرُه: ما فرَّطْناه، أي: نَدِمْنا على إضاعةِ كلِّ ما مِنْ شأنِه أن ينفَعَنا ففَرَّطناه، فهي تعبيرٌ عنِ المبالغةِ في ندمِهم يومَ لا ينفعُ النَّدمُ[2]، والمعنى: "أيْ على تفريطِنا في شأنِ السّاعةِ، وتقصيرِنا في مراعاةِ حقِّها، والاستعدادِ لها بالإيمانِ بها واكتسابِ الأعمالِ الصّالحةِ كما في قولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزّمر: 56][3].

دلالةُ الضّميرِ في ﴿فِيهَآ﴾ من قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾:

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾؛ المرادُ بالضّميرِ في قولِه: ﴿فِيهَا﴾ أنّهم يَتندَّمونَ على تفريطِهم، وتقصيرِهم في مراعاةِ حقِّ السّاعةِ عليهم بالاستعدادِ لها، بالإيمانِ بها، وعمَلِ الصّالحاتِ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: 56]، ويُمكنُ أن يكونَ المرادُ بالضَّميرِ في قولِه: ﴿فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ الحياةَ الدُّنيا، جيءَ بضميرِها وإنْ لم يَجْرِ لها ذِكرٌ لكونِها مَعلومةً[4]، وقد يكونُ ضميرُ ﴿فِيهَا﴾ عائدًا إلى السّاعة، وتكون (في) تَعليليَّةً؛ أي: ما فوَّتْناه منَ الأعمالِ الصّالحةِ النّافعةِ لأجلِ نفْعِ هذه السّاعةِ، وفي كلِّ ذلك نجدُ التّعبيرَ دقيقًا، ووجودُ الضّميرِ يوسّعُ دائرةَ الفهمِ، لِما ذكره هؤلاء المُفرّطون، ممّن عصفت بهمُ الأهواءُ، وطالَهم العذابُ والهوانُ في الآخرة.

الهالكُ مَنْ فرّطَ في اغتنامِ دُنياه؛ للفوْزِ في أُخراه

أحوال تَعْدِيَةِ الفعْلِ (فرّط)، في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾:

الفعلُ (فرّطَ) يتعدَّى إلى المفعول بنفسِه، نحوَ: "فرَّط العقدَ ونحوه: فرَّق حبَّه"، والأكثرُ أن يتعدَّى بحرف الجرِّ (في) فيُقالُ: فَرَّطَ في ماله، إذا أضاعَه. ومنه قولُه تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ

مَـن فـرّطَ أنكرَ وتـــركَ، ومَـن نوقِشَ في آخرته هلكَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/190.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط 4/482، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/191.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/125.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/14.

مِن شَيْءٍۚ﴾ [الأنعام: 38]، ومفعولُ ﴿فَرَّطْنَا﴾ محذوفٌ يعود إلى (ما)، تقديرُه: ما فَرَّطْناه، وعلى أنّ (ما) مصدريةٌ يكون الفعلُ لازمًا لا مفعولَ له، ويجوزُ أن يكونَ الحرفُ (في) للتَّعدية، بتقديرِ مُضافٍ إلى الضَّمير؛ أي: في خيراتِها، والمعنى (على ما فرَّطْنا في السّاعة) يَعنونَ: ما شاهدوه من نجاةٍ ونعيمِ أهل الفلاح، وهم أهلُ الجنَّةِ[1].

دلالةُ الجُملةِ الحاليَّةِ، في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾:

بيانُ حالِ المكذِّبينَ في حملِ الأوزارِ، والحَسرةِ على مغبّةِ الإنكارِ

جُملة ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ﴾: جملةٌ تُعرَبُ حالًا من فاعل ﴿قَالُواْ﴾، وهو الضَّميرُ (الواو)؛ أي: قالوا ذلك في حالِ أنَّهم يحمِلونَ أَوزارَهم، وفائدتُه: الإيذانُ بأنَّ عذابَهم هو بين تلهُّفٍ على التَّفريطِ في الأعمالِ الصّالحةِ والإيمانِ، وبين مُقاساةِ العذابِ على الأوزارِ الَّتي اقترفوها فصارتْ أثقالًا على ظُهورِهم[2].

بلاغةُ المَجازِ في قولِه تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ﴾:

حملُ الأوزارِ على الظّهورِ شَبيهٌ بالكسْبِ بالأيدي في المشهورِ

قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ﴾ على سبيلِ المجازِ؛ يعني: يحملون وبالَ ذلك وعُقوبَتَهُ على ظُهورِهم، ويُقالُ: وقرتْ ظهورُهم منَ الآثام، ثقُلتْ وحملتْ، وأصلُ الوزر في اللّغة: هو الثِّقَلُ، وقولُه: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾؛ يعني: يحملون، وقد وردَ في بعض الرّوايات عنِ السّدّيِّ، قال: ليس من رجلٍ ظالمٍ يدخلُ قبرَه إلّا أتاه مَلكٌ قبيحُ الوجه، أسودُ اللّون، مُنتنُ الرّيح، عليه ثيابٌ دنسةٌ، فإذا رآه قال: ما أقبحَ وجهَك! فيقول: كذلك كان عملُك قبيحًا، فيقولُ: ما أنتنَ ريحَك! فيقولُ: كذلك كان عملُك مُنتنًا، فيقولُ: مَن أنت؟ فيقولُ: أنا عملُك، فيكونُ معه في قبرِه، فإذا بُعِث يومَ القيامة، قال له: إنّي كنتُ أحملُك في الدّنيا باللّذّاتِ والشّهواتِ، فأنت اليومَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/191.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/194.

تحملُني، فيركبُ على ظهْره، حتّى يدخلَه النّارَ[1]، وذِكرُ الظُّهورِ كذِكرِ الأيدي في قولِه تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشّورى: 30]؛ فإنَّ المُعتادَ حَملُ الأثقالِ على الظُّهور، كما أنَّ المألوفَ هو الكسبُ بالأيدي، والمعنى: أنَّهم يتحسَّرونَ على ما لم يَعملوا منَ الحسناتِ، والحالُ أنَّهم يَحمِلونَ أوزارَ ما عَمِلوا منَ السَّيِّئات[2].

دلالةُ الكنايةِ بإضافةِ الأوزارِ إليهم، في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾:

مَن لازمتْه الأوزارُ كبّتْه على وجهِه في النّارِ

يُفسِّرُ الزّجّاجُ قولَه تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾؛ بأنّ أوزارَهم لا تزايلُهم، ولا تفارقُهم أبدًا، فهو كما تقول لصاحبك: شخصُك نَصبُ عيني، وذكرُك نَجيُّ قلبي[3]، وعلى هذا التّفسير تكونُ في الجملة كنايةٌ عن ملازمةِ أوزارِهم لهم لا تفارقُهم، منَ الكنايةِ عن نسبةٍ، وفيها دلالةٌ على المعاناةِ الشّديدةِ من ثِقَلِ الأوزارِ، والتّشهيرِ بهم في موقف الحسابِ، والأوزارُ ملازمةٌ لهم.

الاستعارةُ تُجسّدُ الآثامَ في صورة الأوزارِ، في قوله تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾:

مَـن أثـقـلَـه في دُنياه الـوزرُ، ناء منه بحِملِه في آخرته الظّهرُ

وبالنّظر إلى الأصل اللّغويّ للأوزار جمعِ (وزر): من حِمْلِ الرّجل، إذا بسطَ ثوبَه، فجعل فيه المتاعَ وحَمَلَهُ، فيكونُ في تَسْمِيَةِ الآثام أوزارًا استعارةٌ تُجَسِّد تلك الآثامَ، وتجعلُ لها صورةً ثقيلةً مُنَفِّرَةً، ومع أنّها صارت منسيّةً؛ لكنْ يبقَى إيحاءُ الأوزار بالثِّقل، وتعبيرُ القرآن ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ يُرشّحان تلك الاستعارةَ، ويُمدّانها بالحياةِ.

اقترانُ التّنْكيتِ والمبالغةِ، في قولِه تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾:

بلاغةُ التّرشيحِ والتّصديرِ، منَ البديعِ الأثيرِ

اقترنَ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ ضربانِ من فنونِ البديعِ في الكلام؛ وهما: التّنكيتُ والمبالغةُ، والسّؤالُ: ما النّكتةُ الّتي رجّحتْ اختصاصَ الظّهورِ بالحمل دونَ الرّؤوس؟ والجوابُ: أنّ النّكتةَ في

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/443.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/14.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/242.

ذلك الإشارةُ إلى ثِقَل الأوزار؛ لأنّ الظّهورَ أحملُ للثِّقل منَ الرّؤوسِ، وما يلزمُ من ذكْرِ الظّهورِ مِنْ عجْزِ الرّؤوسِ عن حمْلِ هذه الأوزارِ منَ المبالغةِ في ثِقلِها مُقترنٍ بالتّنكيت، وما اكتنفَ هذا الاقترانَ من تجنيسِ المزاوجةِ في قولِه تعالى: ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ قبل قولِه: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾، وقولِه تعالى: ﴿يَزِرُونَ﴾ بعدَها، وترشيحُ هذا التّجنيسِ لتمكينِ الفاصلةِ بالتّصدير، واقترانِ التّرشيحِ بالتّصدير[1]، والتّرشيحُ أن يقوّيَ التّشابهَ بين المشبَّه والمشبَّه به، وكأنّ الكلامَ كلَّه موجّهٌ للمشبَّه به، والمقصودُ هو المشبَّهُ؛ لأنّهما في نفس المنزلةِ، وقد شبَّهَ الذّنوبَ بالأوزارِ، وهي الأحمالُ، وتغاضَى عنِ المشبَّه، وركّزَ على المشبَّهِ به، وكأنّه الأصلُ في ملمحِ التّرشيحِ المُنوَّهِ به في هذا المبحثِ، وأمّا التّصديرُ فيظهرُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾، وهو ردُّ العجُزِ على الصّدْرِ في قولِه: ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ و﴿يَزِرُونَ﴾، وهو شبيهٌ بقولِه تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 37].

أهمّيّةُ أسلُوبِ الاستئنافِ بالتّذْييلِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾:

إذا شُنّعَ الفعْلُ، عظُمَ الوِزرُ

قولُه تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ هو تَذييلٌ مُقرِّرٌ لما قبلَه، وتكملةٌ له؛ أي: بِئسَ شيئًا يَزِرون وِزرَهم، كقولِه تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ [الأعراف: 177][2]، ومعنى ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾: بئسَ الشّيءُ شيئًا يزرونه؛ أي: يحملونَه[3]، قال البِقاعيُّ: ولمّا كان ذلك الحمل أَمْرًا لا يبلغُ الوصفَ الّذي تحتملُه عقولُنا؛ لحقيقةِ ما هو عليه منَ البشاعةِ والثِّقَلِ، أشار إلى ذلك بقولِه جامعًا للمذامّ: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[4].

(1) درويش: إعراب القرآن: 3/96.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/14.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/22.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/92.

دَوْرُ الأداةِ (أَلَا) الاسْتِفْتاحِيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾:

العنايةُ بالخبرِ المَسوقِ من أغراضِ الاستفتاحِ المَشوقِ

﴿أَلَا﴾ حرفُ اسْتفتاحٍ يُفيدُ التَّنبيهَ للعنايةِ بالخَبرِ، وهو ما أصابَهم من ثِقَلِ ذلكَ الحِمْل، وهي أوزارُ ما عَمِلوا منَ السَّيِّئات[1]، كذلكَ فإنَّ في ﴿أَلَا﴾ إخبارًا عن سوءِ ما يَأْثَمون، مُضَمَّنًا لاستعظامه والتَّشهير به[2]، والمعنى: "فما أشأمَ ذلك الحمْلَ، وما أسوأَه، إذ كان هو الجريمةُ التّي تُدين حاملَه، والشّهادةُ الّتي تشهدُ عليه، وتجرُّه إلى النّارِ"[3].

دلالةُ الفعْلِ ﴿سَآءَ﴾ في السِّياقِ، وأثرُ ذلك في المعنى:

(ساءَ) مُتَعَدِّيَةٌ أوْ للتَّعجُّبِ أو للمبالغةِ في الذَّمِّ

الفعْلُ ﴿سَآءَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ قد تكونُ متعدّيةً متصرِّفةً، بمعنى: (ألا ساءَهُم ما يَزرون) وقد تكونُ محوّلةً إلى فَعُلَ بضمِّ العَيْن، مُشربةً معنَى التَّعجُّب، والمعنَى: (ما أَسْوَأَ وِزْرَهم) أو تكونُ محوّلةً إلى فعُلَ بضمِّ العَيْن، وأُريدَ بها المبالغةُ في الذَّمِّ، فتكونُ مساويةً لِبِئْسَ في المعنَى والأحكام[4]، وأيّا كان التّأويلُ فإنّ لفظَ ﴿سَآءَ﴾ تعبيرٌ عن سوءِ ما يحملون من أوزارٍ، ودلالةُ التّعجّبِ فيها بارزةٌ، وقولُه: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بيانٌ لسوءِ ما يحملون، ولفظُ ﴿سَآءَ﴾ بمعنى ما أسوأَ ما يزرون وما يحملون لسوءِ عاقبتِه، وما وراءه من عذابٍ[5].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(البغتة) و(الفَجأة):

يُقالُ "فَجَأَهُ: كسَمِعهُ ومَنَعَهُ، فَجئًا وفُجاءةً: هَجَم عليه، كفاجَأَهُ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/195، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/191.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/284.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/157.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/483 - 484، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/597 - 598.
(5) أبو زهرة زهرة التّفاسير: 5/2482.

وافْتَجأَهُ، والفُجاءةُ: ما فاجَأَكَ"[1]، وكذلك البَغتُ: الفَجأَةُ؛ وهو أنْ يَفجَأَ الشَّيءُ، والبَغتةُ فيها معنى الإتيان من غير إظهارٍ وإعلام، ومن غير عيانٍ، فإنَّ مجيئَها ليس بلا مُقدِّمةٍ، بينما الفجأةُ هي الإتيانُ بدون مقدِّمةٍ، والهجومُ دفعةً واحدةً، ومجيءُ السّاعةِ والعذابِ والأخذُ من نوعِ البَغتةِ، حيثُ يكونُ التَّعبيرُ فيه ألطفَ منَ الفَجأةِ[2].

استعمالُ (البَغتةِ) في أحداثِ الدُّنيا والآخرةِ، و(الفجأةُ) في أحداثِ الدُّنيا فقط

ويُلاحَظُ كذلك استعمالُ (البَغتةِ) في أحداثِ الآخرة والدُّنيا، وفي الآخرة أغلبُ، واستعمالُ (الفجأة) في أحداث الدُّنيا فقط، كما في نظر الفَجأةِ، وموتِ الفَجأةِ الَّذي ورد في بعض أحاديث الرَّسول ﷺ، ولذلك كلِّه يظهرُ جليًّا أنَّ استخدامَ البيان الإلهيِّ لكلمة ﴿بَغۡتَةً﴾ أنسبُ في السّياق الَّذي وردتْ فيه في حقِّ أولئك المُكذِّبين بلقاءِ اللّه ﷻ.

(الحَسرة) و(الأَسَف):

الحَسرةُ: غَمٌّ يَتجدَّدُ لِفَوْتِ فائدةٍ، فليس كلُّ غمٍّ حسرةً، والأسفُ: حسرةٌ معها غضبٌ أو غيظٌ، و"الحسرةُ: التّلهفُّ على الشّيءِ الفائتِ، ويقال: حسرتُ عليه حَسرًا وحسرةً، وذلك انكشافُ أمرِهِ في جزعِه، وقلّةِ صبره، ومنه ناقةٌ حَسرَى إذا ظلَعَتْ، وحَسَر البصرُ إذا كَلَّ، وهو حسيرٌ؛ وذلك انكشافُ حاله في قلّة بصرِه وضعفه، والمُحَسَّر، المُحَقَّر، كأنّه حُسرَ؛ أي: جُعِل ذا حَسرَةٍ"[3]، والأَسفُ: الغضبانُ المُتلَهِّفُ على الشَّيءِ، ثمَّ كَثُرَ ذلك حتَّى جاء في معنى الغضبِ وحدَه في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزّخرف: 55]؛ أي: أغضَبونا"[4]، والحَسرةُ: التّلهُّفُ على الشَّيءِ الفائتِ[5]، وهذا المعنى هو الَّذي يَجعلُ استعمالَ فعلِ الحَسرة مُصدَّرًا بالنِّداء: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ أليقَ بالسّياق

الحَسرةُ: التّلهُّفُ على الشَّيءِ الفائتِ، وهي أعمُّ وأوسعُ دَلالةً منَ الأسَفِ

(1) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (فَجَأَ).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 186.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (بَغت).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسر).

القرآنيِّ؛ لأنَّه حالُ المكذِّبين بالبعثِ حين تبغتُهم السّاعةُ، فهم ليسوا في حالة غضبٍ؛ إذِ الغَضبُ لا مكانَ له هنا في هذا الوقت العصيبِ، وإنَّما هو ذُلٌّ وانكسارٌ وندمٌ شديدٌ على الشَّيءِ العظيمِ الَّذي فاتَهُم في الدُّنيا؛ وهو الإيمانُ باللّه ولقائِه وعَمَلُ الصّالحات، ولذلك كانتِ الحَسرةُ أعمَّ وأوسعَ دَلالةً منَ الأسف.

(التَّفريط) و(التَّضييع):

التَّفريطُ تقصيرٌ وإهمالٌ، والتّضييعُ فَقْدٌ لما يُحازُ أو يُنالُ

التَّفريطُ: التّقصيرُ في الشّيء حتّى يضيعَ ويَفوتَ، قاله الجوهريُّ[1]، وقيل: بدَّده، قصَّر فيه وضيّعه، وفي الأثر: (لا إفراط ولا تفريط)؛ أي: بوسطيَّةٍ واعتدالٍ[2]، وفي القرآن قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾، وقال: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام: 61][3]، وهو أيضًا تَنحيةُ الشَّيء وإزالتُه عن مكانه، وهذا المعنى ألصقُ بالسّياق من معنى إضاعةِ الشَّيء الَّذي قد يكونُ بقصدٍ وغيرِ قصدٍ، أمّا أولئكَ المكذِّبونَ فقد تَجاوزوا حدودَ اللّه، ونَحَّوا دينَه وشريعتَه من حياتِهم، وأزالوا قاصدينَ كلَّ معالمِ الإيمان وأركانِه من قلوبِهم وعقولِهم، وهذا هو التَّفريطُ الحقيقيُّ، وأمّا التّضييعُ فيقال: ضاع الشّيء: يضيع ضياعًا وضيْعةً، وتركتُه بمَضيعةٍ: إذا تركتَه في موضعِ ضَياعٍ[4]، قال تعالى: ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ [آل عمران: 195]، "وضَيعةُ الرَّجُل: عقارُهُ الَّذي يَضيعُ ما لم يُفتقَد، وتَضَيُّعُ الرّيحِ: إذا هبَّتْ هُبوبًا يُضيِّع ما هبَّتْ عليه"[5]، ولذلك كان استخدامُ البيان الإلهيِّ للفعل الَّذي نطقوا به ﴿فَرَّطۡنَا﴾ مُتحسِّرين مُتندِّمين أَولى بسياقِ النَّصِّ القرآنيِّ، وأَجدَرَ به من غيره.

(1) شمس الدّين البعلّي، المطلع على ألفاظ المقنع، ص: 179.
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، ص: 179.
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، ص: 179.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ضاع).
(5) الرّاغب، المفردات: (ضيع).

(الوِزر) و(الإثم) و(الذَّنْب):

لفظُ الوِزرِ آثرُ في هذه الآيةِ، وأبلغُ في الـدّلالـةِ منَ الإثمِ والذّنْبِ

"الوِزرُ يفيدُ أنَّه يُثقِلُ صاحبَه، وأصلُه الثِّقَلُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣﴾ [الشرح: 2 - 3]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [محمّد: 4]؛ أي: أثقالَها، يعني السِّلاحَ"[1]. والوِزرُ في كلام العرب: الجبلُ الّذي يُلتجأ إليه، هذا أصلُه، وكلُّ ما التجأتَ إليه، وتحصّنتَ به، فهو وِزر، وقال اللّه جلّ وعزّ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩﴾ [طه: 29]، فالوزير في اللّغة اشتقاقُه منَ الوِزر... وكذلك وزير الخليفة معناه الّذي يعتمدُ على رأيه في أموره، ويلتجئُ إليه، وقولُه تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾ [القيامة: 11]؛ معناه: لا شيءَ يُعتصم به من أمرِ اللّه[2]، وأمّا الإثمُ في أصل اللُّغة فهو التَّقصيرُ، أَثِمَ يَأثَمُ: إذا قصَّرَ، وبهذا المعنى سُمّيتِ الخمرُ إثمًا، ونُعِتَ شاربُها بالآثم؛ فهيَ تقصِّرُ بشاربها لذهابها بعقله[3]، والذَّنْبُ: ما يَتبعُه الذَّمُّ، وأصلُه الإتّباعُ، فهو ما يُتبَعُ عليه العبدُ من قبيح فعلِه، فأمّا قولُهم للصّبيِّ قد أَذنبَ فإنَّه مجازٌ[4]، ومِن تَتَبُّعِ المعاني السّابقةِ لتلكُمُ المفرداتِ، يتجلَّى أنَّ معنى (الوزر) أجدَرُ بسياق الآيةِ الكريمةِ؛ للتَّرابط الكبير بين الظَّهر والثِّقَل، فالظَّهرُ هو الَّذي يَحملُ الأثقالَ، ولكن أيُّ أثقالٍ أشدُّ عِبئًا عليه، وآلَمُ به، من ثِقل الأوزارِ وتَبِعاتِها؟!

(1) الراغب، المفردات (وزر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وزر).
(3) الرّاغب، المفردات: (إثم).
(4) الراغب، المفردات: (ذنب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»